سلسلة آداب طالب العلم ②

العلم

فضله وشرفه

من درر كلام

العلامة الإمام شيخ الإسلام
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر
ابن قيم الجوزية
المتوفى سنة ٧٥١ هجرية رحمه الله تعالى

نسقه وضبط نصه وعلق عليه

علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري

مجموعة التحف النفائس الدولية
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدُهُ ، ونستعينُهُ ونستغفرُه ، ونعوذُ باللهِ من شُرورِ أَنفسِنا ، ومِن سيِّئاتِ أَعمالِنا ، مَنْ يهدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له ، ومَنْ يُضلل فلا هاديَ له .

وأَشهدُ أَنْ لا إِلٰه إِلّا اللهُ وحدَه لا شَريكَ له .

وأَشهدُ أَنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُه .

أَمّا بعدُ :

فإِنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى يقولُ في كتابِه العزيزِ : ﴿ وجاهِدْهم به جِهاداً كَبيراً ﴾ [الفرقان : ٥٢] ؛ أَي : القُرآن ؛ كما رُويَ عن ابن عباسٍ [١] رضي الله عنه .

ولا يَتمُّ هذا الجهادُ على وجهِهِ الحقِّ إِلّا بالعلمِ بِهِ ؛ وبأَحكامِهِ ، وعقائدِه ، وآدابِه ، وأُصولِه ، وهدايتِهِ ...

ومِن قواعدِ أَهلِ العلمِ المعروفةِ المشهورةِ قولُهم : « للوسائلِ حُكْمُ الغاياتِ » [٢] ؛ فالعلمُ على هذا المَعْنى - أَيضاً - جهادٌ وأَيُّ جهاد !

---

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٣ / ٥١٤) لابن كثير .

(٢) على تفصيلٍ يُنظَرُ له كتابي « إحكام المَباني » (ص ٨٤ - ٨٥) .

وقد روى الإمامُ الحافظُ يعقوبُ بن سُفيانَ الفَسَويُّ في « المعرفة والتاريخ » (٣ / ٤٠٠) بسنده عن أَبي الدرداءِ رضي الله عنه قولَه : « ما مِنْ أَحدٍ يغدو إِلى المسجدِ لخيرٍ يتعلّمُهُ ، أَو يُعَلِّمُه إِلّا كُتِبَ بهِ أَجرُ مُجاهدٍ ، لا ينقلبُ إِلّا غانماً » .

وفي « جامع بيان العلمِ وفضله » (رقم : ١٥٩) للإمام ابنِ عبدِ البَرِّ عنه – رضي الله تعالى عنه – قال : « مَن رأىٰ الغُدُوَّ والرواحَ إِلى العلمِ ليس بجهادٍ فقد نَقَصَ عقلُهُ ورَأيُهُ » .

وقد رُوِيَ هذا المعنى عن النبيِّ ﷺ عن أَنسٍ رضي اللهُ عنه أَنَّ النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ خَرَجَ في طَلَبِ العلمِ فهو في سبيلِ اللهِ حتّى يرجعَ » [1] .

وهذا معنى صحيحٌ جدّاً .

قال الإمامُ العلّامةُ ابنُ قَيِّم الجوزيّة في كتابِه العُجابِ « مِفتاح دار السعادة » (١ / ٢٧١ – ٢٧٣ – نشر دار ابن عفّان / بتحقيقي) :

« وإِنَّما جُعِلَ طَلَبُ العلمِ من سبيلِ اللَّهِ لأَنَّ به قَوامَ الإِسلام، كما أَنَّ قَوامَهُ بالجهادِ ، فَقَوامُ الدِّين بالعلمِ والجهادِ .

ولهذا كانَ الجهادُ نوعين : جهادٌ باليَدِ والسِّنانِ؛ وهذا المُشارِكُ فيه كثيرٌ، والثّاني : **الجهادُ بالحُجَّةِ والبيانِ؛ وهذا جهادُ الخاصَّة من أتباعِ الرُّسلِ، وهو جهادُ الأئمَّة، وهو أفضلُ الجهادَين لعظمِ منفعتِهِ وشدَّةِ مُؤنتِهِ وكثرَةِ**

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٤٧) والطبرانيّ في « المعجم الصغير » (١ / ١٣٦) والعُقيليّ في « الضُّعفاءِ » (٢ / ١٧) **بسندٍ فيه راويانِ ضعيفانِ !**

أعدائه(١)، قال تعالى في سورة الفرقان [٥١-٥٢] - وهي مَكّيّةٌ - : ﴿ ولو شِئنا لَبَعَثْنا في كُلِّ قَريَةٍ نَذيرًا فلا تُطِعِ الكافرينَ وجاهِدْهُم بهِ جهادًا كبيرًا ﴾ .

فهذا جهادٌ لهم بالقرآن وهو أكبرُ الجهادَين، وهو جهادُ المنافقين أيضًا؛ فإنَّ المنافقين لم يكونوا يُقاتلونَ المسلمين، بل كانوا معهم في الظّاهرِ ، وربَّما كانوا يقاتلونَ عدوَّهُم معهم، ومع هذا فقد قال تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ والمُنافقينَ واغلُظْ عَلَيهِم ﴾ [التوبة : ٧٣]، ومعلومٌ أنّ جهادَ المنافقين بالحُجَّةِ والقرآن .

والمقصودُ أنَّ سبيلَ اللَّهِ هي الجهادُ وطلبُ العلمِ ودعوَةُ الخَلْقِ به إلى اللَّه، ولهذا قال مُعاذٌ رضيَ اللَّهُ عنه : عليكم بطَلبِ العلمِ ؛ فإنَّ تعلُّمَهُ للَّهِ خشيَةٌ، ومدارَستَهُ عبادَةٌ، ومُذاكرتَهُ تَسبيحٌ، والبَحثَ عنهُ جهادٌ (٢) .

ولهذا قَرَنَ سبحانهُ بينَ الكتابِ المُنزَّلِ والحديدِ النَّاصر، كما قال تعالى: ﴿ لَقَد أرسَلْنا رُسُلَنا بالبَيِّناتِ وأنزَلْنا مَعَهُم الكتابَ والميزانَ ليَقومَ النَّاسُ بالقِسطِ وأنزَلنا الحَديدَ فيهِ بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للنَّاسِ وليَعلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُه ورُسُلَهُ بالغَيبِ إنَّ الله قَويٌّ عَزيز ﴾ [الحديد : ٢٥]، فذكرَ الكتابَ والحديدَ ، إذ بهما قَوامُ الدِّينِ، كما قيل :

فما هوَ إلّا الوَحيُ أو حَدُّ مُرهَفٍ تُميلُ ظِباهُ أخْدَعَي كُلِّ مائـلِ
فهذا شفاءُ الدَّاء من كلِّ عاقـلٍ وهذا دواءُ الدَّاءِ من كلِّ جاهلِ

ولمَّا كانَ كلٌّ من الجهادِ بالسّيفِ والحُجَّةِ يُسمَّى سبيلَ اللَّهِ ، فسَّرَ

(١) فليتأمَّلْ هذا دُعاةُ الإثارةِ العاطفية ، والتهييج الحماسيّ السِّياسيّ !
ولْتُنظَر رسالتي « ضوابط الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر عند شيخ الإسلام ابن تيميّة » .

(٢) انظر ما سيأتي (ص ٣٩) .

الصَّحابَةُ رضيَ اللَّهُ عنهم قولَه : ﴿ أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسولَ وأُولي الأمرِ منكُم ﴾ [النساء : ٥٩]، بالأُمراء والعلماء؛ فإنَّهُم المُجاهِدون في سبيلِ اللَّهِ ؛ هؤلاء بأيديهم ، وهؤلاء بألسنتهم، **فطَلَبُ العلم وتعليمُه من أعظمِ سبيلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ .**

قال كعبُ الأحبار : طالبُ العلمِ كالغادي الرَّائحِ في سبيلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ .

وجاءَ عن بَعضِ الصَّحابَةِ رضيَ اللَّهُ عنهُم: إذا جاءَ المَوتُ طالبَ العلمِ وهو على هذه الحال ماتَ وهو شهيدٌ .

وقال سفيانُ بن عُيَينَة : من طَلَبَ العلمَ فَقَد بايَعَ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ » .

وإذ الأَمرُ كذلك ؛ وهو – مع ذلك – خافٍ على كثيرٍ من الناسِ ، وغائبٌ عن واقعٍ شريحةٍ عظيمةٍ من الأُمّةِ ، رأيتُ لُزومَ حَثِّ الناسِ على العلمِ ، وحَضِّهم على التعلُّمِ ، وذلك ببيانِ « فضل العلمِ وشرفِه » ، وتعريفِهم عظيمَ قَدْرِهِ وكبيرَ منزلتِه ، وقديماً قيل : « مَنْ جَهِلَ شيئاً عاداه » !! فكيفَ إذا كانَ هذا الشيءُ الّذي جُهِلَ هو العلمَ ؟! فالبليّةُ – إذن – مُرَكَّبَةٌ !!

ولَمَّا بَدَأْتُ بِجَمْعِ خُيُوطِ الموضوعِ ، ولَمِّ شَعَثِ أَطرافِه ، وتَنْسيقِ مباحثِه ، ومسائلِه ، كانَ أَوَّلَ ما وَقَعَ عليه بَصَري ذلك الفَصْلُ البديعُ المُمْتِعُ العَظيمُ الَّذي دَبَّجَتْهُ يَرَاعَةُ الإمامِ الحافظ ابنِ قَيِّم الجوزيّةِ – رحمه اللهُ تعالى – في كتابِه الجليلِ المُستطابِ « **مِفْتاح دار السعادة** » [1] (١ / ٢١٩ – ٥٤٢) الَّذي عدّه **الأَصلَ**

---

(١) ولقد امْتَنَّ اللهُ سبحانَه على كاتبِ هذهِ الحروفِ – وهو المانُّ وحدَه – بالقيامِ على خدمةِ هذا الكتابِ ؛ ضبطاً ، وتحقيقاً ، وشرحاً ، وتخريجاً ، وتنقيحاً ، وفهرسةً – على مدار ثلاث سنوات – وقد طُبع قريباً في ثلاث مجلدات ، نشر دار ابن عفّان – الدمام .

الأَوْلَ ، وهو : « **في العلمِ ؛ فضلِه وشَرَفِه ، وبيانِ عُمومِ الحاجةِ إليه ، وتوقُّف كمالِ العبدِ ونجاتِه في معاشِه ومعادِه عليه** » ...

فرأيتُ - بعدَ تأمُّلٍ شديدٍ ونَظَرٍ سديدٍ - أَنَّ كلَّ كلامٍ - دونَه - دونَه ! وشعرتُ بأَنَّ الزيادةَ عليه - بمثلِ سَعَةِ جَمْعِهِ وحُسنِ بيانِه - تكادُ تكونُ على القارىءِ عَبَثاً !! وعلى الباحثِ عِبْئاً !!

فانْشَرَحَ صَدْري لإفرادِه بالنَّشرِ حتّى تَعُمَّ فائدتُه ، وتنتشرَ مادّتُهُ ؛ لِما تحويهِ من دُررِ المسائلِ ، وعُيُونِ الفضائلِ ؛ فقد زادت الوجوهُ الّتي ذكره هذا الإمامُ العَلَمُ على مئةٍ وخمسين وَجْهاً ؛ نَثَرَ فيها سائرَ أَنواعِ الاستدلالِ الصحيح الصَّريح ، مُصَدِّراً إيّاها بالقرآنِ والسُّنّةِ ، ثمَّ الآثارِ عن الصحابةِ والتابعين ، ثمَّ كلماتِ أَئمّةِ الدين ، ثمَّ القياسِ الشرعيِّ المُعْتَبَر .

فَأخذتُ مِن هذه الوجوهِ - جميعِها - أَقواها ، وأَبقيتُ منها أَحلاها وأَغلاها ، فَوَصَلَتْ نحوَ مئةٍ وثلاثين وجهًا .

ولقد تميَّزَ كلٌّ مِنَ العَمَلَيْنِ - المبحثِ الذي هنا ، مُقارنةً مع الفصلِ الموجودِ في « المِفْتاح » - بفوائدَ وتعليقاتٍ وتنبيهاتٍ لا تُوْجَدُ في مُقابِلِهِ ، بحيثُ لا يُغْني أَحدُهما عن الآخَرِ .

.. فعسى أَن أَكونَ قد قَدَّمتُ لإخواني المُسلمينَ - من العامّةِ والخاصّةِ - ما تَقَرُّ به عيونُهم ، وتثلجُ به أَفئدتُهم ، وتنتعشُ به صدورُهم ..

واللهَ أَسأَلُ التوفيقَ والسدادَ ، والهدايةَ والرَّشادَ .

وآخرُ دعوانا أَنِ الحمدُ للّهِ ربِّ العالمين .

وكتب

أَبو الحارث الحلبيُّ الأَثريّ

الزرقاء : لعشرٍ خَلَوْنَ من شهرِ رمضان / سنة (١٤١٥هـ)

مُوْجَزُ ترجمة
الإمام العلَّامَةِ شمسِ الدين ابن القيِّم
رحمه اللَّه تعالى

مدخلٌ(١):

« الإمامُ الجليلُ ابنُ القَيِّم عَلَمٌ من أَعلامِ عُلماءِ الكتابِ والسنَّةِ ، وَمَنارٌ من مناراتِ الحقّ ، في هَدْيِهِ إِشْراقٌ ونورٌ ورحمةٌ ، فلقد حَيَّ - رضي اللَّه عنه - لربِّه وكتابِ ربِّه، وسُنَّةِ خاتَمِ النَّبيينَ ، حَيَّ حياةَ الصدِّيقين والشهداءِ ، يفتحُ قلبَه للنُّور ، لأَنَّه لا يُحبُّ أَنْ يحيا إِلَّا في النُّور .

عاشَ يُحَطِّم طواغيتَ الشركِ ، وأَصنَامَ الوثنيَّةِ ، ويُدمِّر تلك الحُصونَ التي شيَّدَتْها شهواتُ الطُّغاةِ البُغاةِ من أَحْلاسِ الرِّمَم ، ورادةِ الإِثْمِ في رَدْغَةِ المواخيرِ .

عاشَ والقرآنُ بين عينيه، وفي فِكرِهِ، وفي قلبِهِ، بل عاشَ والقرآنُ فَلَكٌ لا تدورُ حياتُهُ إِلَّا حولَه ، فأَعاد هو وشيخُه الجليلُ الإِمامُ ابنُ تيميَّةَ إِلى السُّنَّةِ بهاءها ورونَقها، وخلّصاها ممَّا شابها ، وبيَّنا لأَكثرِ الحقائقِ الإِسلاميَّةِ مفهوماتِها الصادقةَ الحقَّةَ ، وجَعَلَا لكُلِّ حقيقةٍ ما هو لها دونَ نقصٍ أَو زيادةٍ .

ورَفَضَا بقُوَّةٍ ودرايةٍ علميَّةٍ ممتازةٍ ، ونباهةٍ فكريةٍ رائعةٍ ما افتراه المحَرِّفونَ والمؤَوِّلون والمُعَطِّلةُ والمُشَكِّكةُ مِن مفهوماتٍ ومُصطلحاتٍ ، ودَمَغُوهم بتجريدِ

---

(١) مِن كلام الشيخ عبدالرحمن الوكيل رحمه اللَّهُ تعالى في مقدمته لتحقيقه كتابَ « إِعلام الموقِّعين » (١ / م - ن) للمؤلِّف ، وذلك قبل نحو رُبع قَرْنٍ مِن الزَّمن .

الكلماتِ المقدَّسةِ مِن حقائقها ومعانيها ، ثمَّ جاءوا لهذه الكلماتِ بما يُحِبُّ اللَّهُ أَن يكونَ لها .

ولهذا عاشا يُناضِلانِ الفلسفةَ والتصوُّفَ والكلامَ ، وأَدعياءَ الفقهِ والأُصولِ مِن عَبَدةِ الرأي والقياسِ ومُحلِّلي الإِثمِ بِاسْمِ الحِيَلِ ! وأَبَيَا في إِصْرارِ المؤمنِ وكِبريائِهِ أَنْ يَهْطَعَا للبغي في سطوتِهِ الباغيةِ ، أَو أَنْ يَرْضَيَا السَّلامةَ يشترِيانِها بمُداهنةِ الباطلِ ، ومُمالأَةِ الضلالةِ ، واستحبَّا السجنَ على الحرِّيَّةِ .

ولم يَرْوِ لنا التاريخُ بعد عصر الإمامينِ الجليلينِ قصَّةَ أُستاذٍ وتلميذِهِ تُشْبِهُ قصَّةَ الإِمام ابنِ تيميَّةَ وابنِ القيِّم ، فهما أَشبهُ بالمِصْباحِ ونورِهِ ، أَو بالشمسِ وضُوئها ، فَرَضِيَ اللَّهُ عنهما وأَرضاهما » .

مصادر الترجمة :

« الوافي بالوفيات » (٢ / ٢٧٠) للصَّفَديِّ ، و « شَذَرَات الذَّهب » (٦ / ٢٦٨) لابن العِماد ، و « الدّرر الكامنة » (٤ / ٢١) لابن حجر ، و « البدر الطالع » (٢ / ١٤٢) للشوكانيِّ ، و « ذيل طبقات الحنابلة » (٢ / ٤٤٧) لابن رجب ، و « ذيل العِبَر » (٥ / ٢٨٢) للذهبيِّ ، و « البداية والنهاية » (١٤ / ٢٠٢) لابن كثير ، و « التاج المُكَلَّل » (ص ٤١٦) لصدِّيق حسن خان ، و « طبقات المفسّرين » (٢ / ٩١) للداووديِّ ، و « بُغية الوُعاة » (١ / ٦٢) للسُّيوطيِّ ، و « الردّ الوافر » (ص ٣٥) لابن ناصر الدين ، و « النجوم الزاهرة » (١٠ / ٢٤٩) لابن تَغْري بَرْدي ، وغيرها .

وللعلامةِ الشيخ بكر بن عبدالله أَبو زَيْد - حفظه اللهُ ونَفَعَ بِهِ - كتابٌ حافلٌ في « ابن قيّم الجوزيّة : حياته ، آثاره ، موارده » في أَكثرَ مِن أَربعِ مئةِ صفحة ، مطبوعٌ عدّةَ طبعات ، أَحسنُها طبعة دار العاصمة سنة (١٤١٢هـ) ، فجزاهُ اللهُ خيرًا .

سَرْدُ الترجمةِ[١] :

○ هو محمَّدُ بن أَبي بكرِ بن سَعْد بن حَرِيز الزُّرْعي ثم الدمشقي ، المُلَقَّب بشمس الدين ، والمُكَنَّى بأَبي عبدالله ، والمعروفُ بابنِ قيِّم الجوزيَّةِ ، والجوزيَّةُ مدرسةٌ كان أَبوهُ قيِّمًا عليها .

○ وقد وُلد ابنُ القيم في ٧ من صفر سنة ٦٩١ هـ ، ونَشَأَ في بيتِ علمٍ وفضلٍ ، وتلقَّى علومَه الأُولى عن أَبيهِ ، وأَخذ العلم عن كثيرٍ من العُلَماءِ الأَعلامِ في عصرِهِ .

وله في كُلِّ فنٍّ إِنتاجٌ قيِّمٌ .

○ وإِلى جانبِ علمِه كان يذكرُ اللَّهَ ذِكْرًا كثيرًا ، ويقومُ الليلَ ، وكان سَمْحَ الخُلُقِ ، طاهرَ القلبِ .

وقد أُعْجِبَ بابنِ تيميَّةَ ؛ إِذ الْتَقَى به سنة ٧١٢ هـ ولازَمَه طولَ حياتِه ، وتتلمَذَ عليه ، وتحمَّل معه أَعباءَ الجهادِ ، ونَصَر مذهبَه ، وحملَ لواء الجهادِ بعد وفاةِ شيخِه ابن تيميَّةَ سنة ٧٢٨ هـ ، وظلَّ يخدمُ العلمَ إِلى أَنْ تُوُفِّي ليلةَ الخميس ١٣ رجب سنة ٧٥١ هـ .

○ وكان رحمه اللَّه بَحْرًا زاخِرًا بأَلوانِ العلومِ والمعارِف ، وكان مُبَرِّزًا في فقهِ الكتابِ والسنَّةِ ، وأُصولِ الدينِ ، واللُّغةِ العربيةِ ، وعلمِ الكلامِ ، وعلمِ السلوكِ ، وغيرِ ذلك .

---

(١) وهي بقَلَم فضيلة الشيخ سيّد سابق حفظه اللَّه ؛ وذلك في مُقدمةِ الطبعةِ التي حقَّقها الشيخُ الوكيل رحمه اللَّه لـ « إِعلام الموقِّعين » (١ / ز - ل) .

وإِنَّما اكتفيتُ - في هذا المقام - بنقل هذه الترجمةِ الَّتي كَتَبَها الشيخُ سيّد سابق ؛ لأَهميتها ، وعِزَّتها ، والدلالةِ على نهجِ كاتبها .

وقد انْتَفَعَ النَّاسُ به وتتلمذَ عليه العُلماءُ ، ولا تزالُ مُؤلفاتُه حتى اليومِ مصادرَ إشعاعٍ ومناراتِ توجيهٍ .

○ وعالمٌ هذا شأنُهُ لا بُدَّ أَنْ يكونَ موضعَ إعجابِ المُنْصِفين ، ومثارَ حقدِ الأَعداءِ والحاسدين - فلقد كان مُستقِلَّ الشخصيةِ ، لا يُصْدِرُ رأْيَه في المسائلِ إلَّا بعد الوقوفِ على ما قالَتْهُ الطوائفُ المختلفةُ ، والنظرِ بعينٍ فاحصةٍ ، ورأْيٍ ثاقبٍ ، يَنْفي به الباطلَ ، ويُؤَيِّدُ به الحقَّ الذي يراه - جديرٌ بأَنْ تُسَلَّطَ عليه الأَضواءُ .

ومِن هنا قام مذهبُ ابن القيِّم على الانتخابِ[1]، بمعنى أَنَّه **لا يتبعُ مذهبًا مُعيَّنًا، وإنَّما يَنْشُدُ الحقَّ أَينما وُجِدَ**، ويُحارِبُ الباطلَ أَينما وُجد، دون أَنْ يتأَثَّر بارتباطاتٍ نفسيّةٍ أَو اتجاهاتٍ من أَيِّ نوعٍ، إلَّا الارتباطَ بالحقِّ، وبالحقِّ، وبالحقِّ وحدَه .

○ وذلك الاتِّجاهُ يتمشّى مع إصرارِهِ على مُحاربةِ التقليد الأَعمى، والحِرْصِ على دَعْم اتجاهاتِهِ وآرائِهِ بالكتابِ والسنّةِ ، ومُحارَبَةِ التأْويلِ المُستجيبِ للأَهواءِ .

ومِن هنا الْتَقى مع السَّلَفِ في تَرْك التأْويل ، وإجراءِ ظواهر النُّصوص على موارِدها ، وتَفْويض معانيها[2]إلى اللَّهِ تعالى .

وقد كان يستهدفُ إخراجَ المسلمين مِن خلافاتِهم ، وتضارُبِ آرائهم ، وخُصوصًا أَنَّ هذه الخِلافاتِ غريبةٌ على المُشتغلين بدينِ اللَّه ، وأَنَّ رُوحَ الإِسلام تأْباها ولا تسمحُ بها ، وأَنّ الأَوضاعَ العامَّةَ للمُجتمع الإِسلاميِّ آنذاك كانت غايةً في السوء من النَّواحي السياسيةِ والاجتماعيةِ والعلْميةِ ، ومِنْ شأْنِ هذه الخلافاتِ

---

(١) والأَصوبُ أَنْ يُقال : الاتِّباع . (ع) .

(٢) المُتعلّقة بذاتِ اللَّه سبحانه ، لا الأَصل اللُّغوي . (ع) .

أَنْ تزيدَ الطينَ بِلَّةً ، وأَنْ تَشْغَلَ المسلمين عن مُقاومةِ أَعدائهم[١] الذين تكالبوا عليهم في العُصور الوسطى .

وساعد العَدُوَّ على تحقيقِ مآربه تمزُّقُ البلادِ الإسلاميَّةِ إلى ممالكَ صغيرةٍ[٢] يحكُمُها العَجَمُ والمماليكُ ، وضياعُ هيبةِ الخِلافةِ التي وُجدت اسْمًا وتلاشَتْ فِعلًا ، فاسْتَغَلَّ التتارُ والصليبيُّون هذا الوضعَ السياسيَّ أَسوأَ استغلالٍ ، وإِنْ كانت الدائرةُ قد دارتْ على الأَعداءِ في نهاية المطافِ ، والحمدُ للَّه .

○ ولم تكُنِ الناحيةُ الاجتماعيَّةُ أَقلَّ سُوءًا من النَّاحيةِ السياسيَّةِ ، فقد كان النَّاسُ يعيشون في رُعبٍ وفَزَعٍ وخوفٍ من سوء المصير ، وخَيَّمَ الفقرُ ، وابْتُلِيَ الناسُ بالجوع والغلاءِ مع نَقْصٍ في الأَموالِ والثمراتِ ، وانطلق اللصُوصُ ينهَبون ويسلُبُون ، واستعان الأُمراءُ بهؤلاء اللصوصِ على تحقيقِ مآربهم ، وظهر الفسادُ في المتاجِر وفي كُلِّ نواحي الحياة .

وَجَوٌّ كهذا لا يُمَكِّنُ مِن طَلَب العلمِ ، بل إِنَّه يصرفُ الأَذهانَ عن نُور المعرِفةِ ، وذلك هو الذي وَقَع في دُنيا الناسِ حينئذٍ ، ولذلك عاشوا عالةً على السَّابقين ، يُقَلِّدُونهم تقليدًا أَعمى ، ويَجْمُدُون على ترسُّم خطواتهم ، ولذلك خَمَدَت القرائحُ ، وعَجَزَتْ عن الابتكارِ والاجتهادِ والتجديدِ ، ولا يَنْقُضُ هذا وجودُ بعضِ أَفرادٍ كان لهم - إِلى حَدٍّ ما - جُهْدٌ يُذْكَرُ فَيُشْكَرُ .

---

(١) في الكتاب : عدوِّهم . (ع) .

(٢) ما أَشبه الليلةَ بالبارحةِ ! فَحالُ الأُمَّةِ - اليوم - كذلك ، تفرُّقًا ، وتَشتُّتًا ، وتسلُّطًا ، واندحارًا ، وذُلًّا - ، ولكنْ أَنَّى لها - اليومَ - أَمثالُ ابنِ تيميَّة وابنِ القيِّم ، ومناهجهم العلميَّة العالية ؟!

وإِنْ وُجِدَ .. فأَنَّى لهم أَتْباعٌ صادقون ، وتلاميذُ مُخْلِصون ؟!

○ في هذا الجوِّ ظهر ابنُ القيِّم ظهورَ الغَيورِ على أُمَّتِه ، المُهتمِّ بحاضرها ، الباحِثِ عن خَيْرِ مصيرٍ لها في مُستقبلِها ، الراغبِ في إنْهاضِها من كَبْوَتِها ، وإقالتِها مِن عثرَتِها ، وإخْراجِها من ظُلُماتِ الخلافاتِ ، والعودةِ بها إلى طريقِ النورِ الذي سَلَكَهُ سَلَفُنا الصالحُ ، فَوَصَلُوا في نهايتِه إلى أَكرمِ الغاياتِ في ضَوْءِ هذا الدينِ القويمِ ، وبتوجيهاتِ القرآنِ الكريمِ .

○ والأُصولُ الَّتي اعتمدَ عليها ابنُ القيِّم في استنباطِ أَحكامِه ؛ هي الكتابُ والسنَّةُ والإجْماعُ - بشرطِ عدم العِلْمِ بِالمخالفِ - وفتوى الصحابيِّ - إذا لم يُخالِفْهُ أَحدٌ من الصحابةِ ، فإنِ اخْتَلَفُوا تَوَقَّفَ تَوَقُّفَ المُختار - ثم فتاوى التابعينَ ، ثم فتاوى تابِعيهم ، وهكذا ، والقياسُ ، والاستصحابُ ، والمصلحةُ ، وسدُّ الذرائع ، والعُرْفُ .

○ وأَمَّا بالنسبةِ إلى طريقتِه في البحثِ ؛ فقد كان يعتمدُ أَوّلًا على النُّصوصِ ، يَسْتنبطُ منها الأَحكامَ ، ويُكْثِرُ من الأَدلَّةِ على المسألَةِ الواحدةِ ، ويعرضُ آراءَ السَّابقين ، يختارُ منها ما يُؤيِّدُه الدليلُ ، وقد يُبَيِّنُ وجهةَ كُلِّ فقيهٍ فيما ذهبَ إليه ، ويعرضُ أَدلَّةَ المخالفين ويُفَنِّدُها ، ويستعينُ بالأَحاديثِ على بيانِ معنى الآيةِ .

وهو في كُلِّ هذا لا يتعصَّبُ لمذهبٍ مُعيَّنٍ ، بل يجتهدُ ، ويدعو إلى الاجتهادِ ، ويُعْمِلُ فِكْرَهُ ، ولا يَدَّخِرُ في ذلك وُسعًا ؛ ويَنْشُدُ الحقَّ أَينما كانَ .

○ وقد كان ابنُ القيِّم يرجو مِن وراء ذلك كُلِّه أَنْ يَقْضِيَ على اختلافِ المسلمين الَّذي قادَهُم إلى الضعفِ والتفكُّك ، وأَنْ يجمعَهم على الاقتداءِ بالسلفِ في أَمرِ العقائدِ ، لأَنَّه رأَى أَنَّ مذهَبَ السَّلفِ أَسلمُ مذهبٍ[1]؛ وكان

---

(١) وأَعلمُهُ وأَحكمُهُ . (ع) .

يرجو أَنْ يَقُودَ المسلمين إلى التحرُّرِ الفكريِّ ، ونَبْذِ التقليدِ ؛ وإبْطالِ حِيَلِ المُتلاعبين بالدِّين ؛ وأَنْ يكونَ الفهمُ المُشْرِقُ الكاملُ لروح الشريعةِ الإسلاميةِ السَّمْحةِ ، هو النِّبراسَ ، وهو المُوَجِّهَ الحقيقيَّ في كُلِّ المواقفِ .

○ « تُوُفِّي رحمه وقتَ عشاءِ الآخرة ليلةَ الخميسِ ثالثَ عَشَرَ رَجبٍ سنة ٧٥١ هـ ، وصُلِّيَ عليه من الغدِ بالجامعِ عَقِيبَ الظُّهرِ ، ثمَّ بجامع جَرَّاح[1]، ودُفن بمقبرةِ الباب الصغير ؛ وشيَّعه خلقٌ كثيرٌ .

ورُئِيَتْ له مناماتٌ كثيرةٌ حَسَنةٌ رضي اللَّه عنه .

وكان قد رأَىٰ قبلَ موتِه بمدَّةٍ الشيخَ تقيَّ الدين[2] رحمه اللَّه في النَّومِ ، وسأَلَهُ عن منزِلَتِه ؟ فأَشار إلى عُلُوِّها فوقَ بعض الأَكابرِ ، ثم قال له : وأَنتَ كِذْتَ تلحقُ بنا ، ولكنْ أَنتَ الآنَ في طبقةِ ابن خُزَيمة رحمه اللَّه »[3].

وبعد :

فتلك لَمْحَةٌ خاطِفةٌ عن هذا العالمِ الجليلِ ؛ والمُصْلِحِ الكبيرِ ، نُقَدِّمُها في إجْمالٍ نجدُ تفاصيلَه مع تفاصيلِ الجوانبِ الأُخرى لابنِ القيِّم في هذا الكتابِ .

نسأَلُ اللَّهَ أَنْ ينفعَ به ؛ وأَنْ يَجْزيَ مؤلِّفَهُ خَيرَ الجزاءِ ، وأَنْ يُعِزَّ دينَه ، ويُرشِدَ عبادَه بأَمثال ابن القيِّم من العُلماء الأَجلَّاء ، والفقهاء الذين أَراد اللَّهُ بهم خيرًا ، وأَرادوا لأُمَّتِهم النَّفعَ والإرشاد .

وما توفيقُنا إلَّا باللَّهِ ، عليه توكَّلْنا وإليه أَنَبْنا ، وإليه المصيرُ .

---

(١) انظر « مُنادمة الأَطلال » (ص ٣٧١) لابن بدران . (ع)

(٢) هو شيخ الإسلام ابن تيميَّة . (ع)

(٣) مِن نَقْل الشيخ عبدالرحمن الوكيل في مقدِّمته لـ « إعلام الموقِّعين » (١ / خ) عن « ذيل طَبَقات الحنابلة » (٢ / ٤٥٠) لابن رَجَب الحنبلي .

العِلْم

فَضْلُهُ وَشَرَفُهُ

وَبَيَانُ عُمُومِ الحَاجَةِ إِلَيْهِ
وَتَوَقُّفِ كَمَالِ العَبْدِ وَنَجَاتِهِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ عَلَيْهِ

[وجوهُ تفضيلِ العلم]

○ الوجه الأوّل : [شهادةُ اللهِ سبحانَه لأهلِ العلمِ] :

قال اللّهُ تعالى : ﴿ شَهِدَ الله أنَّهُ لا إلهَ إلّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولو العِلمِ قائماً بالقِسطِ لا إلهَ إلّا هوَ العَزيزُ الحَكيم ﴾ [آل عمران : ١٨] .

استشهدَ سبحانَهُ بأُولي العلم على أَجَلِّ مشهودٍ عليه، وهو تَوحيدُهُ فقال : ﴿ شَهِدَ الله أنَّهُ لا إلهَ إلّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولو العِلمِ قائماً بالقِسطِ ﴾، وهذا يدُلُّ على فَضلِ العلمِ وأهلِهِ من وجوهٍ :

أحدُها : استشهادُهُم دونَ غَيرهم من البَشرِ .

والثّاني : اقترانُ شهادَتِهِم بشهادتِهِ .

والثّالثُ : اقترانُها بشهادَةِ ملائكتِهِ .

والرّابعُ : أنَّ في ضمنِ هذا تَزكيَتَهُم وتَعديلَهُم؛ فإنَّ اللَّهَ لا يَستَشهِدُ مِن خَلقِهِ إلّا العُدولَ، ومنه الأثَرُ المَعروفُ عن النَّبيِّ ﷺ : « يحملُ هذا العلمَ من كلِّ خَلَفٍ عُدولُهُ ؛ يَنْفُونَ عنهُ تحريفَ الغالينَ ، وانتِحالَ المُبْطِلين ، وتأويلَ الجاهلين »[1].

---

(١) حديثٌ صحيحٌ لي جُزءٌ مُفرَدٌ في تخريجِهِ، عنوانه : « إتحاف ذوي الشَّرف، بطُرُق حديث : يحملُ هذا العلمَ مِن كلِّ خَلَف ... » .

وانظر تعليقي على كتاب « الحِطَّة » (ص ٧٠-٧١) لصدِّيق حسن خان .

وقال مُحمَّد بن أحمد بن يَعقوبَ بن شيبَة : رأيتُ رجلًا قدَّم رجلًا إلى إسماعيلَ بنِ إسحاقَ القاضي، فادَّعى عليه دَعوى، فسألَ المُدَّعى عليه ؟ فأنكرَ، فقال للمُدَّعي : ألكَ بيِّنَةٌ ؟ قال : نعم، فلانٌ وفلانٌ، قال : أمَّا فلانٌ فمِن شُهودي ، وأمَّا فلانٌ فليسَ من شُهودي ، قال : فيَعرفُهُ القاضي ؟ قال : نعم ، قال : بماذا ؟ قال : أعرفهُ بكَتْبِ الحديثِ، قال : فكيفَ تعرفهُ في كَتبِهِ الحديثَ ؟ قال : ما علمتُ إلّا خَيرًا، قال : فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « يحملُ هذا العلمَ من كُلِّ خلفٍ عدولهُ »، فمَن عدّلَهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ أَوْلى ممَّن عدَّلْتَهُ أنتَ، فقال : قُم فهاتِهِ، فقَد قَبِلْتُ شهادتَهُ[1].

وسيأتي - إن شاءَ اللَّهُ - الكلامُ على هذا الحديث في موضعِهِ .

الخامسُ : أنَّهُ وصَفَهُم بكونهم أُولي العلم، وهذا يدُلُّ على اختصاصِهم به، وأنَّهم أهلُهُ وأصحابُهُ ، ليسَ بمُستعارٍ لهم .

السَّادسُ : أنَّهُ سبحانهُ استشهدَ بنفسه وهو أجلُّ شاهدٍ، ثمَّ بخِيارِ خلقهِ وهم ملائكتُهُ والعلماءُ من عبادِهِ، ويكفيهم بهذا فضلًا وشَرفًا .

السَّابعُ : أنَّهُ استَشهَدَ بهم على أجلِّ مشهودٍ به وأعظمِهِ وأكبرِهِ ، وهو شهادَةُ أنْ لا إلهَ إلّا هُوَ، والعظيمُ القَدْرِ إنَّما يَستَشهدُ على الأمرِ العَظيمِ أكابرَ الخَلْقِ وساداتِهم .

الثَّامنُ : أنَّهُ سبحانهُ جعلَ شهادتَهُم حُجَّةً على المُنكِرينَ، فهُم بمنزلةِ أدلَّتِهِ وآياتِهِ وبراهينِهِ الدَّالَّةِ على توحيدِهِ .

التَّاسعُ : أنَّهُ سبحانهُ أفرَدَ الفِعلَ المُتضمِّنَ لهذه الشهادة الصَّادرَةِ منه ومن

---

(١) روى القصةَ الخطيبُ البغداديُّ في « شرف أصحاب الحديث » (رقم ٥٧) .

ملائكتِهِ ومنهم، ولم يَعطِفْ شهادتَهم بفعلٍ آخرَ على شهادتِهِ، وهذا يدُلُّ على شدَّةِ ارتِباطِ شهادتِهِم بشهادتِهِ، فكأنَّهُ سبحانهُ شهدَ لنفسِهِ بالتَّوحيدِ على ألسنتِهِم، وأنطَقَهُم بهذه الشهادَةِ، فكانَ هو الشاهدَ بها لنفسِهِ إقامةً وإنطاقًا وتعليمًا، وهم الشاهدونَ بها له إقرارًا واعترافًا وتَصديقًا وإيمانًا .

العاشرُ : أنَّهُ سبحانه جَعلهُم مُؤدِّينَ لحقِّهِ عندَ عبادِهِ بهذِهِ الشهادَةِ، فإذا أدَّوْها فَقد أدَّوا الحقَّ المشهودَ به، فثبتَ الحقُّ المشهودُ به، فوجَبَ على الخَلْقِ الإقرارُ به، وكان ذلك غايَةَ سعادتِهِم في معاشِهِم ومعادِهِم، وكُلُّ مَن نالَهُ الهُدى بشهادتهِم، وأقرَّ بهذا الحقِّ بسببِ شهادتِهِم، فلَهُم من الأجرِ مثلُ أجرِهِ .

وهذا فَضلٌ عظيمٌ لا يَدري قَدْرَهُ إلّا اللَّهُ، وكذلكَ كُلُّ مَن شهِدَ بها عَن شهادتِهِم فلهُم من الأجرِ مثلُ أجرِهِ أيضًا .

فهذه عَشرَةُ أوجهٍ في هذه الآيَةِ .

○ **الوجهُ الثاني في تَفضيلِ العلم وأهلِهِ : [الجهل والعلمُ لا يستويان] :**

أنَّهُ سبحانهُ نَفى التَّسويَةَ بين أهلِهِ وبينَ غيرهِم، كما نَفى التَّسويَةَ بينَ أصحابِ الجنَّةِ وأصحابِ النَّار، فقال تعالى : ﴿ **قُل هَل يَستَوي الَّذينَ يَعلَمونَ والَّذينَ لا يَعلَمون** ﴾ [الزمر : ٩]، كما قال تعالى : ﴿ **لا يَستَوي أصحابُ النَّارِ وأصحابُ الجنَّة** ﴾ [الحشر : ٢٠]، وهذا يدُلُّ على غايَةِ فضلِهِم وشَرَفهِم .

○ **الوجهُ الثالث : [الجاهل بمنزلة الأعمى] :**

أنَّهُ سبحانهُ جعلَ أهلَ الجهلِ بمنزلةِ العُميان الذين لا يُبصِرون ، فقال